

مقدمة المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى، وبعد. تفخر أمتنا العربية الإسلامية بتراتها والعالم كله يشهد بذلك، فالحضارة الأوروبية تسند كل السند على حضارة العرب في شتى المجالات العلمية من طب وهندسة وكيمياء وطبيعة وفلسفة وتاريخ... إلخ حتى المتاحف الأوروبية والأمريكية مليئة بأثمن وأغلى المخطوطات العربية على مختلف فروع العلم، وإلى يومنا هذا العالم يعيش في دهشة وحيرة من أوج وعظمة الحضارة العربية والإسلامية وخير دليل على هذا المصنفات والمؤلفات لكبار العلماء الفقهاء والمفسرين والقضاة ومازالت الجامعات الأوربية تدرس هذه الأعمال، وقد نبغ عدد من المستشرقين في الاهتمام بالدراسات العربية والتراث وخاصة المخطوطات نذكر منهم لويس شيخو وليفى بروفنسال وذى وبوذرت وكارل بروكلمان، وأقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً «مواهب اللطيف فى فضل المقام الشريف فى مناقب السلطان قانصوه الغورى» لشمس الدين محمد بن أحمد بن شرف الدين المدنى الشافعى. فقبل التحدث عن هذا العمل، نلقى الضوء على الممالك والسلطان قانصوه الغورى.

١- نشأة الممالك وحكمهم

يمكن أن يسمى عصر الممالك بحق العصر المظلم لأنه أغمض عصر فى تاريخ مصر، ولأنه من جهة أخرى كان مظلماً بالحجج التى حالت دون المؤرخين للوصول إلى حقيقته، ولكنه بالرغم مما يوصف به كان عصرأ قائماً بنفسه له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة به ولهذا العصر تأثير شديد فى مجرى الحوادث فى تاريخ مصر فى العصور التى تلتها لأن النيران الذى ألقاه الممالك على رقاب المصريين كان أثقل من أن تتخلص منه مصر فى حوالى ثلاثة قرون (١) ولذا

(١) لا يزال كثير من العادات الباقية من عصر الممالك فاشية فى أرياف مصر، وخصوصاً فى الصعيد، حتى الآن.

يمكننا أن نقول أن مدنية هذا العصر كثيرة المتناقضات، ولذلك وصفت هذه بأنها عصر الظلام، أو عصر الفوضى أو العصور المظلمة ووصفها الغير بأنها عصر النظم المحلية وحكم الاقطاع أو عصر الفروسية والشجاعة وغير ذلك من المظاهر المختلفة التي جعلت تاريخ هذا العصر أمتع جزء في تاريخ مصر.

وفي هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التي عاشتها أوربا في القرون الوسطى في عصر الفرسان والاقطاع.

آل تراث الأيوبيين بعد انقراض الملك منهم الى المماليك البحرية سنة ١٢٥٠هـ. فقد اضطر صلاح الدين الأيوبي لكي يتمكن من القيام بحروبه الصليبية إلى أن يشتري ١٢ - اثني عشر - ألف مملوك من الجراكسة والأتراك وبعد أن دريهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جنداً، لم يلبك أن صار أشد الجنود الأسبوية الأصل باساً وأقواهم بطشاً وكانت سلطة مواليتهم قد آلت على توالي الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا في أحوال الدولة على أهوائهم ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم وأختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلقون برسم أنفسهم فرقاً من المماليك على الوجه الذي آلفت به فرقهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم .

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم في مقتبل العمر يُباعون في أسواق النخاسة بيع الأرقاء ثم يُنقلون إلى ذلك القطر الذي قُدِّر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه دون أن تربطهم به صلة وطن ولا أصرة قرابة.

ولم يكن عجباً أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعينهم من شأنه وشأن أهلها سوى التفتن في ضروب ابتزاز الأموال واستدرار الخير فتطوروا بطور الحضارة والترف وألفوا النعيم وغضارة العيش وبلغوا في ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاختلال والمكاييد المراد بها تعزيز الأطماع الذاتية وتفشى وسائل العنف والقهر بما يؤدي إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح لتحقيقتها.

ورغم توالى حضور المماليك وغيرهم من قبائل الغزاة إلى مصر وتوطنهم فيها فقد استمر النقص في السكان منذ الفتح العربي حتى قدرتهم (عدد السكان) الحملة الفرنسية بمليونى نفس. وإننا إذا بحثنا عن أسباب هذا النقص لانبث أن نتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماتهم من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شؤونها بالعبث والإفساد حتى ضاع الغرض المقصود منها.

ومن الأسباب المباشرة لتناقص عدد السكان كثرة عدد الطوائع التى أصابت مصر. ولكن من المسؤول عن عدم وقاية البلاد من هذا البلاء؟ أليس هم بالطبع حكام البلاد الذين لم يكن لهم غرض إلا إرواء شهواتهم والقبض على السلطة فوق رقاب العباد؟

ويرى «كوفيه» وقد نقل عن كلوت بك أن أسباب تناقص عدد السكان هو طغيان الصحراء على الوادى الخصيب.

وقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلت فى مصر محل النظام طوائف كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحسام ما انتحلوه لأنفسهم من حق التصرف فى نفوس الأهلىين وإيرادهم موارد الهلاك.

ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس. أولئك الألوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب إذا أصبح ميداناً للحروب الأهلية ومجالاً تعبت فيه طوائف الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد.

«مثل المماليك فى تاريخ المشرق، دوراً مهماً جعل من الواجب على المؤرخين أن يضعوا له بحثاً خاصاً، وتحقيقاً دقيقاً، ليظهروا ما كان لتلك الطغمة من الأثر الطيب أو السىء، وليشرحوا أيضاً ما إذا كان فى ظهورهم وتقوية شأنهم، بل وفى ذكائهم وقوة بأسهم، فائدة للأمم الإسلامية، بحيث استطاعت أن ترد وقتاً ما بهؤلاء المماليك الحروب الصليبية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر، أو هل كان ظهور

أولئك على مسرح السياسة الشرقية، سواء في آسيا أو في شمال أفريقيا، سبباً في
اضمحلال النهضة العربية، وقضاء على الحياة الفكرية.

إنى أميل إلى الرأي بأن الممالك وخصوصاً الطبقة الأخيرة منهم كانت سبباً لبلاء
هذه الديار وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان، إذ صيروا وادي النيل ميداناً للسلب
والنهب والمظالم كما سنرى ذلك مفصلاً فيما يلي:

كلمة مملوك هي اسم مفعول من «ملك» وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لإيضاح وقد
ذكر المؤرخون أن منشأ الممالك من جهات «قفجان» من شمالي آسيا. وأنه لما غزا
الغول تلك الأصقاع تحت قيادة «باتوخان» حفيد جنكيز خان، ساموا أهلها الذل
وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، حتى هاجر سكان الولايات القروينية والقوقاسية من
ديارهم، فضعفت قبائلهم وتشتت في بلاد آسيا الصغرى. وكانت تجارة الرقيق
الأبيض والأسود في شدة انتشارها، فكان النخاسون يتعاونون أحسن أبنائهم وأجملهم
وأقوامهم من أقاربهم، وأبائهم، أو كانوا يختطفوهم فيبيعونهم لمن شاء من أمراء وأغنياء
الديار السورية والعربية والمصرية فيشب الفتى وقد نسي قومه وجنسيته واندمج في
سلك أمثاله الممالك تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من أمراء العرب أو
غيرهم، يقربونهم إليهم، ويحبوهم لجمالهم وذكائهم وولائهم في خدمتهم، فيرقونهم
بعد أن يشتد ساعدتهم في بطانتهم، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مراتب العز
ومنازل الإمارة والشرف بل إلى الملك ذاته لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من
الممالك الأرقاء الذين ابتاعوا صغاراً وربوا في أحضان أسيادهم وملوكهم، شبا على
الفروسية والإقدام، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة، ولم يكن يخفى على
صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين الممالك بعد الدولة الأيوبية من عهد الظاهر
بيبرس، فالملك قلاوون، فالسلطان حسن وبرقوق وبرسباى وقايتباى وجميع ملوك
هذه الدولة وسلاطينها، لم يكونوا إلا ممالك، أو أبناء ممالك مثلهم.

ومدة حكم هؤلاء الممالك لا يمكن أن يجد لها الإنسان مثيلاً في تاريخ العالم كله
وذلك لأن مركزهم كان استثنائياً لأنه لم يسمع مطلقاً - ولو أنه حدث أن العبيد
والأرقاء في ثوراتهم يسودون مواليتهم سيادة لا تلبث أن تنقش سحبا - إن طائفة من
الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤوا أرقاء مثلهم ثم

يحكمون قطراً غنياً كمصر، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر،
ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد ولكن ممالك مصر يعطوننا هذا المثال .

وقد كان نهوض هذه الطائفة تبعاً للسنة التي جرى عليها العباسيون وهي بيع
الألوف من العبيد من قبائل التركمان والمغول واستخدامهم حرساً لهم ومصدراً
لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتل وأصبحوا سدى الجيش
ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثوا أن يصبحوا ذوى الأمر والنهى فى بيت الملك،
يشعلون نيران الفتن والقلائل حيث عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك
سبيلهم خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من سبقهم من الخلفاء العباسيين
وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذه النحو إذ كانوا غرباء فى البلاد فاحتاجوا إلى
الاعتزاز بأمثال هؤلاء».

«إن القبائل المقهورة فى أواسط آسيا كانت لاترى غضاضة فى بيع أفلاذ أكبادها
للنخاسين الذين كانوا يعدونهم لحسن المستقبل والسعادة فى الغرب . وقد سهّل عمل
النخاسين ما كان يُذاع عن ثروة مصر الكسيرة التى يمكن الحصول عليها بأقل
جهد . لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحروب وأسرها بل كان يتدفق على البلاد
الغربية سبل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً
بأثمان باهظة .

ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك
رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة . وقد يشب أحدهم وثبة
واحدة تجعله أمير ألف . وأخذ عددهم يتضاعف بشراء ممالك جدد كانوا ينالون مائال
أمرأؤهم من الحرية والثراء . وقد كان السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس انكباباً على
شراء الممالك . ولذلك استخدموا الحكومة فى إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من
هؤلاء الممالك . فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف، وبينما
كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة الفقر غارقاً فى حماة الجهالة كان الممالك
المقربون لدى الأمراء ولاسيما حاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب، وكان
الواحد منهم ينهض من درجة حاجب ويتابع تدريجياً حتى يصل إلى مرتبة سيده،
فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً».

«وقد قصَّ المقرئ في كتابه عن تاريخ مصر رواية عن المماليك وهي وإن كانت من القصص التي لا يعتمد على روايتها المؤرخ، إلا أنها تعطينا فكرة صادقة عن الآمال والأمانى التي تدور في نفس المملوك وهو قادم في طريقه إلى مصر «روي الإسحاق عن عبد الملك الأشرف قايتباي المحمودي، أنه لما جلبه (الخوجا) محمود إلى مصر وكان معه رفيقه أحد المماليك الذي جلب معه مع الجمال الذي يحملهما إلى مصر في ليلة مقمرة فقالا لعلَّ هذه الليلة هي ليلة القدر التي يُستجاب فيها الدعاء، فليدعُ كل منا بما يحبه. فأما قايتباي فقال أطلب من الله تعالى سلطنة مصر، وقال الثاني وأنا أطلب من الله أن أكون أميراً كبيراً. أما الجمال فقال أما أنا فأطلب حُسن الخاتمة فصار قايتباي سلطاناً وصاحبه أميراً، فكانا إذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا».

فانظر كيف كانت تطمع نفس المملوك إلى السلطنة وهو لا يزال في الطريق إلى مصر!.

«وقد بينا فيما سبق أن نهوض هذه الطائفة كان نتيجة لما اختطه العباسيون على أن القياس على حالة بغداد قياس لا أساس له، لأن القبائل الهمجية التي نزلت هناك اختلطت بالسكان واصبحت جزءاً منهم. أما الحالة في مصر فكانت على نقیض ذلك تماماً، وهذا هو موضع العجب، فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسياتهم وعاداتهم، فكانت حكومتهم على رأسها الأمير أو السلطان في حين أن باقي المماليك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد .

إذا علمنا كل ذلك وعلمنا مبلغ السلطة الهائلة التي لا تُتحد التي تمتع بها المماليك في مصر عرفنا السبب الذي من أجله أقدم كثيرون من الناس على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر! .. لا بل علمنا السبب الذي كان يدعو كثيرين من الجراكسة والتركمان أن يفدوا رُماً إلى أرض الآمال».

أجمع المؤلفون الذين عنوا بوضع تاريخ عن عصر المماليك على تقسيمهم إلى طبقتين أو قسمين «المماليك البحرية ١٢٥٠م - ١٣٨١م» و«المماليك البرجية ١٣٨١م - ١٥١٧م» وقد جرى أكثر المؤرخين على ذلك ضاربين صفحاً عن أعظم

عصر قويت فيه شوكة المماليك وكثرت مظالمهم وعظم نفوذهم وأضححت فيه مصر حقلاً لمطامعهم وأغراضهم أى عصر الأتراك أو المدة المحصورة ما بين الفتح العثماني واستقلال محمد علي بمصر.

ونرى فى كتاب فتح مصر الحديث أن حافظ بك عوض قد قسم المماليك إلى طبقتين كبيرتين :

الطبقة الأولى من ١٢٥٠م - إلى الفتح العثماني ١٥١٧م.

الطبقة الثانية من ١٥١٧م إلى أن مذبحة القلعة الشهيرة أو إلى استقلال محمد علي بمصر وذلك لأنه يرى أنه لا عبرة لقولهم أن القسم الأول من المماليك البحرية كان من جنس غير جنس المماليك الشراكسة لأن المماليك فى أول أمرهم وفى أواخر الدولة العباسية إلى مذبحة القلعة، ثم فى أيام محمد علي وإسماعيل وتوفيق لم يكونوا من جنس خاص، ولا من أمة معلومة، بل كانوا دائماً خليطاً من يباع ويشتري من الفتيان الحسان الأقوياء، سواء أكانوا من شواطئ بحر قزوين وأواسط آسيا من تار ومغول وسركس، أم كانوا من بحر إيجه من الأروام وجزر البحر الأبيض المتوسط .

وهذا السلطان الظاهر «حوش قدم» من ممالك الطبقة الأولى، يُلقب بالرومى لأنه يونانى الأصل، ويُلقب بالناصرى مع إسلامه، وكان له ولع عظيم بالعلوم والآداب اليونانية القديمة. وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الأدرياتيك أو من جزائر إيطاليا والبحر الأبيض على الإجمال.

ولأنه يرى أيضاً أن الفتح العثماني لم يقض على سلطة المماليك بل زادها عتواً وتجبراً وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن المماليك حكموا مصر من عام ١٢٥٠م إلى حوالى ١٨١١م مع استثناء مدة الحملة الفرنسية وأول ظهور سلطة محمد علي الفعلى، فأما أنا فأميل إلى أربعة أقسام .

١- المماليك البحرية ١٢٥٠م - ١٣٨٧م

٢- المماليك البرجية ١٣٨١م - ١٥١٧م

٣- المماليك البكوات ١٥١٧م - ١٨١١م

٤- ممالك الأسرة العلوية.

ولست فى هذا التقسيم أراعى اختلاف جنسيات الممالك بعد أن أوضحت أنهم جميعاً لم يكونوا فى أى طبقة من وطن واحد ولا من أمة واحدة. ولست أراعى أيضاً فى هذا التقسيم المناطق التى سكنوها فأقول بمالك بحرية لأنهم سكنوا جزيرة الروضة وبرجية لأنهم سكنوا الأبراج ولا بمالك بكوات لأن هذا كان نعمتهم أيام الاحتلال العثماني.

لست أراعى ذلك ولكن أراعى اعتبارات أخرى فإن أكثر ملوك الطبقة الأولى أتيج لهم الحكم باسم سلاطين من الأطفال، فقد تولى قلاوون وصياً على ابن بيرس (سيف الدين شلامس) فلم يلبث أن خلعه من الملك ووثب مكانه على العرش، وتولّى كتبخا الحكم بصفته وصياً على السلطان لاجين فلم يلبث أن استبد وحده بالملك.

أما ملوك الطبقة الثانية فقد صار إليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع كبير.

«وعلى كل فإن ممالك هاتين الطبقتين كانا أرقى أخلاقاً وأفضل سياسة من ممالك الطبقة الثالثة، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة ورجال عدل ونظام ورفق بالرعية وكان مما يصلح شأنهم، أن الوراثة كانت توجد فيهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ولم يدعها مطعماً لكل سفاك للدماء طامح للسلطة والإمارة.

وقد امتاز ممالك هاتين الطبقتين بما تركوه فى القاهرة وضواحيها من الآثار التوسية والمساجد البديعة النادرة المثال وما أبقوه من العمائر التى تدل على ذوق رائق ورفاهية تُضرب بها الأمثال.

وقد وصفهم العلامة «لاين بول» فى كتابه المسمى «القاهرة» فقال:

«لقد جمع هؤلاء الممالك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الأمراء فى أى زمان أو مكان، فبينما تعرف أنهم عصابة من الأفاكين ابتيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء، وربوا سفاكين للدماء، ظالمين للعباد، مخربين للبلاد، نجد منهم ميلاً غريباً للفنون، يحق لأى ذى عرش وصولجان أن يشخر به على الأنداد والأقران، ولقد أظهر

هؤلاء المماليك فى لباسهم، ومسكنهم وعمائرهم ذوقاً سليماً، ورفاهية بائغة، يصعب على أوربا الآن فى عصرها «الاستائيقى» المحب للجمال والتأق، أن تدانهم فيه .

انظر إلى ما يوجد الآن فى القاهرة من المساجد الكبيرة التى تناطح مآذنها السحاب تجد أنها بُنيت فى عصر ممالك هاتين الطبقتين، انظر إلى جوامع قلاوون، والناصر، والناصرين قلاوون، والسلطان حسن، وبرقوق، والمؤيد، والأشرف، وقايتباى .

ثم انظر إلى قباب قبور المماليك بالصحراء، ترى من جلال البناء، وبديع العمارة، مالايدانى وكل مابنى بعد فى العصر الأخير من القرن التاسع عشر، إنما هو تقليد وتشبيه بتلك العمائر التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم.

وأما ممالك الطبقة الثالثة أى المماليك البكوات فإن أغلب المؤرخين كانوا لا يعتبرون عصرهم من ضمن عصور حكم المماليك ولذا اضطرت أن ألتجىء إلى مصادر كثيرة وإلى تطويل قد يكون مملاً لأثبت أن الحكم الفعلى فى عصر الأتراك كان لممالك هذه الطبقة دون غيرهم. وإنهم لم يتقصهم فى هذا العصر إلا لقب السلطنة الذى استبدلوا به لقب «شيخ البلد» ولم يأبه المملوك كثيراً لذلك واكتفوا بالجوهر، والحكم الفعلى دون لقب السيادة».

«ظل حكم المماليك على مصر طوال الحكم العثمانى إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالى من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته فى مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك. وبقي المماليك على عهد العثمانيين - كما كانوا من أجيال عدة - يكثرون من عددهم بشراء ممالك جُدد كانوا يفدون على مصر من سيبيريا وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان، وصار رؤساء المماليك يُسمون باسم «شيخ البلد» وكانوا كثيراً ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها وكان «الشيخ» إذ عاضده الأمراء يستفحل أمره فينزل الباب العالى وواليه فى مصر على إرادته، فكأنه هو الحاكم الفعلى للبلاد.

ولما كان الباب العالى مشتغلاً بحروبه مع الروس فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، نبه ذكر شيخ البلد، على بك الكبير» واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك فى مصر، وأخذ يزيد فى عدد المماليك فى بلاطه

حتى بلغوا ستة آلاف، وعندئذ أتخذ موقف المستقل وطرده الوالى العثمانى إلى القسطنطينية، ثم توجه بجيشه إلى سورية فأخضعها وأخضع البدو كلهم فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ومنحه لقب سلطان. وقد حكم حكماً زاهراً ائتمرت به جماعة وذبحوه غيلة فى سورية»

يقول كلوت بك فى كتابه (لمحة إلى مصر) ترجمة مسعود بك.

«صارت مصر فى سنة ١٥١٧م أى أيام السلطان سليم الأول إقليماً من الدولة العثمانية ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعده من مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها. وكان من جهة أخرى فى حاجة الى مداراة الممالك واستمالتهم إليها ليأمن جانبهم فابتكر لإدارة شؤون البلاد أسلوباً أحكم تدييره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمناه. من ذلك فإنه جزأ السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفاً على طائفة من طوائف الممالك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل من قوى تلك الأجزاء.

أما شؤون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضاؤه من كبار الممالك وزعمائهم وأما الإدارة المحلية فقد نيظت بأربعة وعشرين بيكاً منهم روساء تلك الفرقة والطوائف وزعمائها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا المفروض والضرائب الجزئية فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها إلى الباب العالى، وكان للسلطان فى البلاد وال برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزنته وصيانة البلاد من الاعتداء الخارجى ومقاومة نحو الأحزاب وتفاقم خطرهما.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والاسباهية بقيادة رؤساء يسمون الوجاقية لتأييد الباب العالى والدود عن حقوقه واختصاصاته ولكنهم بالنظر لاعتيادهم فى مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضرة من الترف والتنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التى جعلت الانكشارية من أولى البأس والشدة

ونجم عن هذا وذاك أن احتفظ المماليك لعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان في قدرتهم العمل لإبعاده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على التوالى الأيام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت من النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة .

ثم كانت ثورة على بك الكبير التى إنتهت بإعلان تنصيبه سلطاناً على مصر وقد انصدع من جراء هذه الثورة صرح السيادة العثمانية فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال حتى سهل على المماليك منذ هذا الحين إبعاد الشوات ونفيهم بلا معارض ولامشاق وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرص مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحي عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادورا قصورهم المشيدة بلا مخالفة ولا محاولة مقاومة وجاء من بعدهم خلف تفوقوا عليهم فى الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فإنهم على الرغم من اتصافهم مثلهم بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام أبوا مزالقة المناذرة باستقلالهم ولم يظفروا إلى هذه الغاية التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها لاسيما وأنهم يعتقدون أن ما هم عليه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الأسمى بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها .

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحياناً بهم إلى الوقوف عن دفعها بالمرّة متذرعين بباطل الأعذار وفساد الدعايات . وما كان فى سعة الباب العالى تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجرد ذيل الأعضاء عليه علماً منه بما يعقب التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له ومن ثم اتجهت سياسته إلى غاية واحدة هى إلقاء بذور التدابير والانقسام بين المماليك مع اتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب لا يتمكن الحزب القوى الغالب من تأييد شوكته وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة

ويتوافر النظام. وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التي كانت تسوء على السدوام أحوالها ويضطرب جبل شؤونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أساس وطيد من الهمة والهيبة والنظام».

وقد تمكن الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م من الإستيلاء على مصر عنوة من الباب العالى ولكن أغراض هذه الحملة فشلت فترك نابليون مصر فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩م ثم غادرها الفرنسيون نهائياً فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١م وبعد أن ترك مصر الفرنسيون حاول الأتراك إحتلالها مرة أخرى ولكن أحتلالهم لم يطل إذ نزع الحكم منهم بعد حين محمد على - يوليه سنة ١٨٠٥م - وبدأ محمد على لكى يكون صاحب النفوذ الحقيقى فى البلاد أن يخلصها من المماليك وحكمهم ولما كان لاطاقة له على ذلك فى ذلك الوقت اتفق معهم اتفاقاً وقتياً (سنة ١٨١٠م) ولما لم يخلدوا للسكينة استأصل شأفة زعمائهم فى مذبحه القلعة (فبراير سنة ١٨١١م)، «صفر سنة ١٢٢٦هـ» وبذلك إنتهت الطبقة الثالثة منهم وأما الطبقة الرابعة فسيأتى (١) عنها التفصيل فيما بعد واندمجت بقية شعبة المماليك فى الشعب المصرى وزالت هيئتهم من الحكومة بإقصائهم عنها نهائياً بيد عرابى.

أما عن عصر قانصوه الغورى^(٢) [١٥٠١م - ١٥١٦م] فقد ذكرت المصادر والمراجع عنه وعن طوماباى فقد ذعرت المدينة عند اختفاء العادل طومان باى حين شاع ذكر ظهور قانصوه (ذى الخمسمائة دينار)^(٢) ذلك السر الغامض. ولم تمض بضعة أيام حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى، وهو مملوك جركسى، خدماً «قايتباى» كغلام وتابع له. وقبل أن يصير (رئيساً لعشرة) كانت سنة تزيد على الأربعين، وبعد ذلك رقى بسرعة إلى قيادة «طرسوس» و«حلب» و«ملاطية»، ثم صار أميراً لألف ثم كبير الأمان، ثم رئيس الوزراء. وقد رفض العرش فى أول الأمر، ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله بعد أن أقسموا له على الإخلاص فى خدمته فقبله

(١) أنور زقلمة المماليك ١٤

(٢) عندما نثر من نهاية تاريخ هذا العصر تعوزنا تفاصيل القريرى وابى المحاسن المنتعة ونحن مدينون على كل حال لابن إياس الذى يقص أخباراً واضحة ولكنها ليست مهيبة مفصلة مثل أخبار سابقه. وتوجد أيضاً مخطوطات عربية وتركية تكمل تاريخ هذا العصر ولكننا ليست مجزوماً بثقة مصدرها.

أخيراً، وكانت سنة إذاك ستين عاماً، غير أنه كان لا يزال ثباتاً شديداً، ولم يلبث أن أظهر للأمرء أنه ليس بالشخص الذى يخضع لأى واحد منهم.

بدأ حكمه كالمعتاد بطرد شيعة «طومان باى». ولما كانوا خطراً يهدد العرش قبض عليهم وسجنوا أو نفوا، وصودرت أملاكهم. ثم وهب الحرية والقوة للحزب المعادى لهم، وعينهم فى الوظائف. وقد وجد «طومان باى» فى مختبئه يدبر المكائد للسلطان الجديد. وبعد بضعة أسابيع خانه أصدقاؤه وأمكنوا منه ممالك أمير كان قد قتله، فقتلوه، وبهذا نجا «قانسوه» من الخطر من غير أن يثير كراهية شيعة سلفه، وأحضرت أيضاً من الاسكندرية وفاة «جنبلاط» الذى قتله «طومان باى»، ودفنت بالقاهرة باحتفال ملكى.

ولما زال الخطر الذى كان يهدد «قانسوه» وقتئذ، التفت إلى تدير موارد الدولة وأراد أن يملأ الخزانة، ففرض ضرائب اجبارية على كل أنواع الممتلكات كانت نسبتها تبلغ ما يساوى دخل مدة تتراوح بين سبعة أشهر وعشرة، ولم يستثن أملاك الوقف أو الخيرات. ولم يعرف هواة ولا رفقاً فى سبيل جباية هذه الضريبة، ليس من اليهود والنصارى فحسب، بل من كل الطبقات، فولد ذلك الثورات فى المدينة، وصار جامع الضرائب فى القاهرة يرشق بالحجارة، وقد ذبح حاكم دمشق فى إحدى المشاجرات. وعلى ما كان يجبى من ضرائب التجارة المهركة والبضائع، نقصت قيمة العمل الفعلية. وفرضت رسوماً ثقيلة على الموتى حتى كان الذى يتبقى لقرابة الميت قليلاً. وقد ارتأى أحد المستشارين قصيرى النظر فرض ضريبة على الممالك، فوافقه السلطان عليها أولاً، ولكنه أسقطها عنهم عندما ثار ثائرم وأزعجوه، ولم يكتف باسقاطها بل سمح بقطع لسان مبتدعها الذى جرد من ملابسه ووضع على جمل وشهر، ثم جلد ورجم حتى أشرف على الهلاك. وفى هذا دليل واضح على الوحشية السائدة وعلى غلظة كبد السلطان، وعلى نظر الممالك بعضهم إلى بعض، ومكانة الواحد منهم عند الآخر.

أما الأموال التى جمعت من الناس على الوجه المتقدم فكانت تصرف بسخاء، فى أول الأمر على الممالك الذين ساعدوا فى جمعها، ثم بعد ذلك على شراء عدد كبير

من الممالك الذين كان يثق بهم السلطان كثيراً، لأنهم حديثو عهد بالبلاد . ثم صرف كثيراً من المال على الإصلاحات العامة، وتحصين الإسكندرية ورشيد وغيرهما، وعلى مجارى الماء فى مصر، وبناء مسجد فخم ومعهد فى القاهرة، وإقامة مبان جديدة فى القلعة كانت وقتذاك تحاط بالأشجار الكثيرة والأزهار الواردة من سورية. وكذلك كان يصرف من إيراد الدولة الشيء الكثير على تجميل «مكة» وزيادة المياه فى طريق الحاج، وعند القبور المقدسة. ولكن كل هذه النفقات لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب فخامة «بلاط» ذلك المملوك الذى اشترى بالأمس من النحاس، وبذخه وبهائه.

وقد ظل هذه البلاط على أحسن ما يكون فخامة وأبهة فى الأثاث والرياش والخيل وكل ما يحيط به . وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس فى مائدة السلطان فحسب بل فى كل أرجاء القصر - وكما يقال - حتى المطبخ . أما لباس السلطان وأداة زينتته فقد جملت بكل ما غلا ثمنه وجمل، هذا إلى الشعراء والمغنين والموسيقيارين والقصاصين الذين احتشدوا فى البلاط ونعموا على حساب اليتامى والفقراء (١).

وليس هناك شيء كثير جدير بالذكر عن السنوات الأولى من حكمه، ولا بد أن تكون مظالم ممالك السلطان قد أصبحت لا تحتمل، لأنه حدث مرتين أنه عندما حلف له أمراؤه يمين الطاعة، أقسم قانصوه نفسه على مصحف عثمان بأنه لا يسمع لمالكيه بايذائهم وكذلك نقرأ عن خيانة ظن أنها وقعت، فكان العقاب عليها يفوق وحشية وقسوة كل ماسبق من أنواع الجزاء (٢). ولم يحدث شيء كثير من القتال إلى آخر عهد الممالك، وغاية ما يقال أن البدو قاموا بغاراتهم المعتادة، فهاجموا «الكرك» و«بيت المقدس»، ولكن أمراء «سوزية» ردوهم على أعقابهم وقد دعت الثورات فى مكة «وينبع» وتنافس الأحزاب فيهما، وإلى أخذ الأهبة لمعاوية الحكام وإعادة النظام. وقد بذل السلطان اهتماماً كبيراً فى إعداد أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتغاليين.

(١) هكذا يقول ابن إياس الذى شاهده بنفسه. على هذا يمكن الإعتماد عليها مع ما عساه يكون فيها من بعض المبالغة.

(٢) قد مات أحد الضحايا تحت التعذيب الأليم الذى أوقع به كى يتعرف بأشياء أكثر مما اعترف بها. وقد لف نسيج مغمور فى الدهن حول أصابعه وأحرق. وقد عصبت جبهته بسنة حتى جحظت عيناه. وهلم جراً

وكان ذلك هو الوقت الذي عبر « فاسكودا جاما»، بعد أن كشف عام ١٤٩٧م الطريق حول «رأس الرجاء الصالح» وحصل على ملاحين من ساحل «زنجبار»، المحيط الهندي إلى شواطئ «ملبار» و«قاليقوط» وهاجم الأساطيل التي كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر، وأوقع الرعب في قلوب حكام تلك الجهات. وهناك طلب أمراء «جوزيرات» واليمن المساعدة من مصر فجهز السلطان أسطولاً عدد وحداته خمسون، بقيادة أمير البحر «حسين الكردي». وقد سخر الناس في تحصين «جدة» لتكون ملجأً من البرتغاليين وحمى بلاد السعيدة والبحر الأحمر. ولكن بقيت الأساطيل التي كانت في المحيط تحت رحمة العدو. وقد وقعت معارك مختلفة، أخذ في أحداها البرتغاليون سفينة مصرية تخص قانصوه، كما أخذوا في العالم التالي أسطولاً مكوناً من سبع عشرة سفينة بعد معركة هائلة، واستولوا على حمولتها، وذبحوا التجار والحجاج، وأحرقوا السفن. وقد استاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الأحمر، وضياع المتاجر والضرائب، ولتعرض مكة ومينائها للمهانة، وفوق كل هذا لما أصاب سفينته، ونذر أن ينتقم من البرتغال شر انتقام. ولكنه في بداية الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يقف «فردينند» ومانويل عن اعتدائهم على البحار الهندية فإنه يدمر كل أماكنه المقدسة، ويعامل المسيحيين كما يعاملون هم المسلمين. ولما فشل في طلبه هذا قام بالاستعداد بمشروع بحري بكل همة ونشاط، فنجح بعض النجاح إذ أنه في إحدى المعارك غلب «لورنزو الأليدي» وقتل، ولكن في العام التالي انتقم البرتغاليون لهزيمتهم من أسطول المصريين انتقاماً مروعاً. وبعد بضع سنين أخذ «الفونسو الكرك» «عدن» وهاقت المصائب بالجيوش المصرية في اليمن، وعند ذلك أعد «قانصوه» أسطولاً جديداً لمعاقبة الأعداء ولحماية التجارة الهندية، ولكن قبل أن تُعلم نتيجة هذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها وصارت «مكة» والبحر الأحمر وجميع مصالح البلاد العربية إلى أيدي العثمانيين.

وكان نجم السلطان حينذاك آذناً بأقول. ولم يكن هناك ما يجدر ذكره عن الباب العالي ومع هذا كانت الضربة القاضية قريبة جداً.

إنتهت الحرب الاخيرة (١٤٩٠م) كما رأينا بهزيمة الجيوش العثمانية، ثم رجع السلم بين الدولتين، واستؤنف ارسال الوفود بالهدايا الغالية، ومع هذا كانت أسباب

النفور منذرة، إن قريباً وإن بعيداً، بخطر محقق بسبب مساعدة هذه الحكومة أو تلك للأمرء المتنافسين في آسيا الصغرى وعلى حدود سورية. وبينما كان «بايزيد الثاني» لا يزال مشتغلاً في أوروبا، إذ ظهر سبب جديد لمعاداة مصر - نشأ هذا السبب من علاقات الدولتين بالأسرة «الصفوية» في الشرق - ويجب علينا أن نعرض عليها الآن :

كان السبب المباشر في قطع العلائق هو «الشاه إسماعيل الصفوى» وهو من سلالة صفى الدين، وإليه ينسب، ومنه أخذ الاسم، وهو صوفى بلدة «إردبيل» المشهور. وقد انتشرت تعاليمه الصفوية خاصة في القرن الرابع عشر في إذربيجان وقندال بيته بسرعة نفوذاً كبيراً. ولما طاردهم أهل قبائل «الوير الأسود- قره قيون» التركمانيون أعانهم أهل «الوير الأبيض - آق قيون» أى الشاة البيضاء التركمانيون أيضاً الذين ارتبطوا معهم برابطة الزواج حتى أن إسماعيل فى معركة مع «الوير الأبيض» وكان إسماعيل إذ ذاك لا يزال طفلاً فحمل مع الأسرى إلى «اصطخر» ومنها هرب إلى «الحيجان» حيث بقى مستخفياً بين قرابته، وأشرب قلبه مذهب أجداده فاعتنقه بغيره حماسية حتى صار رئيساً لطائفة الصوفيين، ثم جمع شيعته حوله وصمم على الإنتقام من قتلة أبيه، فقاتل زعيم «الوير الأبيض»^(١) وهزمه، ثم استمر فى فتوحه وصار ذا سطوة عظيمة فى فارس وخراسان، وكذلك فى بلاد ماوراء النهرين. ولما عاد إلى إذربيجان صار خطراً يهدد الدولة العلية، ليس بفتوحه على حدودها بل بتغالى شيعته فى معتقدهم. وكان «بايزيد» قد قبض على كثير من الصوفيين فى بلاده وسجنهم أو نفاهم لأنهم كانوا خطراً على حكمه. وقد التمس الشاه إسماعيل من بايزيد أن يسمح لشعبه بالمعبر من البسفور إلى أوروبا بدل قتلهم ونفيهم، فرفض بايزيد هذا الملتمس رفضاً باتاً، فأرسل «إسماعيل» بعثاً إلى البيادقة يدعوهم إلى مشاركة جيوشه فى استرداد الأقاليم التى أخذتها منهم الدولة العلية.

وقد غضب بايزيد من السلطان. واطهر مر الشكوى من أنه سمح لذلك البعث بالمرور من سورية، فأراد «قانسوه» أن يترضاه ففسجن البيادقة الذين كانوا إذ ذاك فى مصر وسورية. ومع أنه أطلق سراحهم بعد ستة خووفه من إنتقام البيادقية، بقيت العلاقات بين مصر والدولة العلية سليمة حيناً ما.

(١) يمكن أن يستخلص التمصب الشديد فى مذاهب إسماعيل من قصة مؤداهما أن جنة أحد أعدائه حمزت (شويت) وأكلها. ويقال أيضاً أنه أمر بتربية خنزير سماه «بايزيد» وهو أكبر احتقار عند المسلمين.

ولما جلس سليم (العثماني) على العرش تغيرت الحالة، وأخذت مجرى آخر، إذ كان موقف إسماعيل مهدداً جداً، وكان سليم نفسه فارساً معلماً محباً للحرب أكثر من أبيه، يضاف إلى ذلك أن قام «إسماعيل» الذي حاول عبثاً أن يستميل «قانسوه» لمؤازرته، يعضد «أحمد» الذي ادعى العرش بعد أن ائتمر بسليم أخيه. وزيادة على ذلك خاف «سليم» رعاياه الشيعيين الذين كانوا يميلون إلى متعصبى الصوفيين، وعدّهم خطراً على العرش فقبض عليهم وقتلهم. وقد رأى إسماعيل أن فى قتل شيعة معرفة له فأخذ ينتقم لهم، وصار لامناص من الحرب، فخرج اليه سليم ونازله فى معركة «قرب تبريز»، وقد أبدى الشيعيون المتعصبون بأساً شديداً وشاركهم نساؤهم فى الحرب، ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً امام فرسان الأتراك ومدافعهم، وشدة بطشهم، فهزم رئيسهم إسماعيل هزيمة مخزية وهرب. أما سليم فقد أعوزته الميرة فقفل راجعاً نحو الغرب وأشتى فى «أماسية». وفى الربيع عاد إلى الميدان وهاجم صاحب «ذى الغادر» الذى وقف على الحياد لأنه تابع لمصر، فقتله وأرسل رأسه مع أخبار انتصاره إلى قانسوه. ثم انصرف «سليم» عن الشاه الذى كان قد عاد أدراجه إلى «تبريز» وحاول عبثاً أن يعقد الصلح، واكتسح «ديار بكر» و«الجزيرة» وأخذ «الرها» و«نصيبين» و«الموصل» وغيرها من المدن.

ولما كان سليم الآن بآمن من «إسماعيل شاه» فكر فى الإقدام على مشروع عظيم هو فتح مصر، ورأى وجوب البدء بغزو سورية. وبما أنه لم يكن هناك ما يشغله من جهة الشمال، رأى أنه من المستطاع أن يتقدم آمناً، ولذلك جهز لهذا الغرض جيشاً عظيماً منظماً فى ربيع عام ١٥١٦م. وأراد أن يخدع مصر فتظاهر بأن ما يقوم به من الاستعداد إنما هو لإتمام القضاء على «إسماعيل» وكان الواجب على «قانسوه» أن يتيقظ للخطر من قبل، لأن أسباب توتر العلاقات بين تركيا ومصر زادت كثيراً، ذلك لأن أخا آخر لسليم خرج عليه ثم التجأ إلى مصر فقبلته، ولأنه بعد وفاة أحمد أمدّ السوريون ابنه الصغير ومعه حاشيته الخارجون بما يلزمهم، ولأن الأمراء التابعين لمصر كانوا قد أخرجوا ورود المدد للجيش العثمانية فى حربهم مع الفرس، وفوق هذا قد تم الإنفاق سراً بين سلطان مصر وبين إسماعيل وإن لم يكن فى معاهدة علنية. لم ينتبه قانسوه بل أضاع على نفسه الفرصة، لأنه لو ساعد الأمير الصوفى بسيفه من

أول الأمر لكان خيراً له ولجاءت النتيجة على عكس ما وقع بعد، ولكنه من غير شك لم يكن يرد بذلك الاتفاق الذي عقده مع إسماعيل أن يشجع المذهب الذي يكرهه كل العالم الإسلامي. وقد كان قانصوه قد أسنَّ واعتمد على الأحزاب المحيطة به فلم يكن بأى حال قادراً على الحرب.

وأخيراً انتبه قانصوه إلى الخطر الذي يتهدده، فقضى شتاء عام ١٥١٥م وربيع عام ١٥١٦م فى اعداد جيش قصد أن يسير به إلى أطراف آسيا الصغرى الشائرة، وبذا أصبح متآمراً لكل الطوارئ. ولما كان على وشك الخروج بجيشه جاءه وفد من لدن «سليم» يعده بشكل ودى، أنه يُسمح له أن يعين حاكماً مصرياً لولاية «ذى القادر»، وأن يستأنف فتح الحدود كما كانت لمرور التجارة والماليك .

وقد خرج «قانصوه» من القاهرة بجيشه الكبير الجهنز بجميع المعدات عدداً المدافع فى حمارة الصيف - بعد أن ترك «طومار باى» حاكماً على المدينة - فى أبهة، تتقدمه الموسيقى والأغاني والأفراح، وتبعه خمسة عشر أميراً لألف، عدا كثير من الأمراء الذين هم أقل مقاماً من هؤلاء، وخمسة من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم إلى هذا كله أثناء المسير فرق كثيرة من البدو والسورين. وعلى هذا لم يكن الجيش فى حاجة إلى المزيد من الجند^(١)، وكذلك خرج فى موكبته وزراء الدولة والخليفة والمشايخ ورجال الخاشية ومعهم المؤذنون والأطباء والموسيقارون.

وقد ضم إليه فى الطريق ابن «أحمد» العثماني المطالب بالعرش المتوفى واحتفل به، على أمل أن يستميل المحيين له من الجيوش العثمانية وتقدم على مهل ودخل دمشق فى أبهة، وقد فرشت فى طريقه البسط فى حين أن التجار الأوربيين نثروا الذهب على المحتشدين حوله. وبعد أن أقام أياماً تقدم نحو حلب متباطئاً، واستقبل فى «حمص» و«حماء» بمظاهر السرور. وجاءه فى تلك الأثناء رسول آخر من معسكر العثمانيين، وقدم له، على سبيل التفرير به، هبات غالية له وللخليفة أيضاً وللكبير الوزراء. ثم عرض أن «سليماً» يطلب شيئاً من السكر المصرى والحلوى. ثم أشار من طرف خفى إلى أن الذى أجأ «سليماً» إلى الاستعداد للحرب ثانية والنزول إلى ميدان

(١) وتقدر قوة الجيش المصرى العادى بنحو ٢٦ أميراً لألف عدا ممالك المائة وأمرء العشرة. ويقال أن قانصوه اشترى ثلاثة عشر ألفاً من المالك، ترك منهم فى القاهرة الفين لحماية القلعة.

القتال هو صدور فتاوى شرعية ضد «إسماعيل» المرتد، فأرسل قانصوه وزيره «مغله بك» فى وفد بهدايا فى مقابل تلك، ولكن فى اللحظة التى وصل فيها إلى المعسكر العثمانى كان «سليم» قدخلع رداء السلم وأعلن غرضه الحقيقى، ولما أراد أن يظهر احتقاره للمصريين عامل الوفد معاملة مشينة، ورد الوزير مقصوص الشعر، محلوق اللحية، راكباً حيواناً أعرج يشعاً، والباقيين سائرين على الأقدام.

وقابله فى «حلب» «خير بك» الحاكم مقابلة فخمة جداً لأنه أراد أن يخفى خيانتة وهى انضمامه سرأ إلى الباب العالى، ومع أن السلطان وصله نبأ هذا من حاكم «دمشق» لم يصدقه. أما الأهليون فقد غضبوا كثيراً من المماليك لما أتوه فى مدينتهم من المظالم. عاد «مغلة بك» فى حالة مشعثة وأخبر السلطان بموقف «سليم» العدائى، وباقتراب الجيوش التركية سريعاً، فزال عندئذ كل شك فى موقف العثمانيين. واستحلف قانصوه الأمراء وكبار القضاة والمماليك السلطانية على الطاعة من جديد، ووزع عليهم الهدايا أيضاً فأستاء جد الاستياء المماليك الآخرون الذين لم يعطوا شيئاً ثم حذر السلطان ثانية من خروج «خير بك» قائلاً له إن هذا العمل فى هذا الوقت خطر جداً، فلم ينفذ عزمه^(١). تقدم عند ذلك الجيش وعسكر فى اليوم العشرين من شهر أغسطس فى سهل «مرج دابق» على مسيرة يوم شمالى «حلب» وانتظر قدوم العدو. فى ذلك السهل كان سيتقرر مصير الأمبراطورية المصرية. وقد قاتل المصريون قتال الأبطال، عدا المماليك السلطانية الذين أراد السلطان أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى. وقد تخرج كثيراً فى وقت ما موقف الترك حتى إن «سليماً» فكر فى التقهقر، ولكن لتفوق العثمانيين فى العدد والمدافع نالوا النصر فى آخر الأمر، وقد عجل بهذا النصر تقهقر «خير بك» بجيشه فولى المصريون الأدبار نحو دمشق لأن أبواب «حلب» قد أوصدت فى وجوههم. أما الخليفة وبعض كبار الأمراء فقد انحازوا للعدو. وقد قتل «قانصوه» فى هذه المعركة وحمل رأسه إلى الفاتح. (٢)

(١) مع أنه قتل بعض الأمراء الذين خدموا «سليماً» على كره منهم ثم فروا من جيشه عندما أمكتهم الفرصة. وقد كان موقف «خير بك» خطراً جداً.

(٢) وتختلف الروايات فى هذا؛ فقد أذاع «خير بك» خبر موته ليزيد فى فرار المصريين وقيل إن السلطان وجد حياً فى الميدان فقطع رأسه ودفن منعا لوقوعه فى يد العدو. ورواية العثمانيين أن الذى قطع رأسه تركى فأراد سليم أن يقتله ولكنه عاد نغفا عنه.

وقد دخل «سليم» إلى «حلب» ظافراً، فرحّب به الناس باعتباره منقذاً لهم من مظالم المماليك وعسفهم. وقد أكرم مشي الخليفة، ولكنه ويخ القضاة - الخفية وحدهم هم الذين فروا - لعدم إمكانهم وقف فوضى المماليك. ثم أخذ معه «خيربك» وضباطاً مصريين آخرين وتقدم نحو القلعة التي قد هرب منها قائدها واللاجئون إليها، وهنا أراد أن يظهر احتقاره لرجال حاميتها فأرسل أمامه جندياً أعرج ومعه عصا فتحت له الأبواب في الحال.

وقد وجد في القلعة نفائس كثيرة كان قد وضعها السلطان والأمراء خوفاً عليها، فأصبحت لأحارس لها، ثم سار سليم وسط أفرح واحتفال إلى المسجد الكبير فدعى له فيه في الصلاة ثم سار مظفراً من حلب إلى دمشق حيث انتشرت أشد حالات الزعر بين الناس الذين لم يحاولوا عمل شيء لمقاومة العدو ولحماية المدينة أكثر من إرسال الماء في السهل الذي حولها. وقد شل سير أعمالهم تنازع الأمراء فيما بينهم، كما هو دأب أمراء المماليك، وقد فكر بعضهم في تولية «جان بردى» عرش السلطنة، وفكر آخرون في إجلال «ابن قانصوه». ولكن عند اقتراب العثمانيين ذهب فريق إليهم وفر فريق إلى مصر، ودخل «سليم» المدينة حوالي منتصف أكتوبر، وقد اغتبط به السكان من عظيمهم لحقيرهم اغتباطاً لا يحيط به الوصف، وخضعوا بسرعة للفتح العثماني تخلصاً من عسف المماليك.

حكم قانصوه ما يزيد قليلاً على خمس عشرة سنة، ولسنا نعرف الكثير عن حياته الخصوصية وإدارته الداخلية، لأننا عندما نصل إلى الأيام الأخيرة للسلطنة المصرية نقل لدينا التفاصيل بدرجة لا يصح بموجبها. وما يقال في غير مصلحته أقل جداً مما يقال عن أكثر السلاطين السالفين، وذلك رغم قسوته واغتصابه الأموال كما وضعنا. هذه كانت نظرة عامة عن أحوال المماليك وظهورهم على الساحة السياسيّة ثم إلقاء الضوء على قانصوه الغوري وما دار من أحداث وحروب في أثناء فترة حكمه.

وكتاب «مواهب اللطيف في فضل المقام الشريف في مناقب السلطان قانصوه الغوري» من المصادر الهامة التي نتحدث بشيء من الدقة والإمعان عن نظرة الدين والسنة للحكم والحكام مستندين على ما ورد في كتاب الله من آيات وعلى السنة من

آحاديث قوية موثوقة من كتب الأسانيد الستة وقد قمت بتصوير هذا العمل من معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رمز تاريخ رقم ٢١٠٦ وتقع هذا المخطوطة فى ٥٢ ورقة وتتميز بخطها الجميل والواضح وأحياناً يوجد بياض فى بعض السطور. فالكتاب يمثل الدراسات التاريخية الفقهية فى أصول الحكم وموقف الحاكم من المحكومين ثم حقوق المحكومين نحو الحاكم والعكس. ويعتبر هذا العمل أول مرة يظهر فى الوجود. وصاحب هذا العمل «شمس الدين محمد بن أحمد بن شرف الدين المدنى الشافعى» أغفلته المصادر والمراجع إلا أنه يبدو فقيهاً ومحدثاً ومفسراً واختلف فى سنة وفاته فقيل سنة ٩٠٥هـ وقيل سنة ٩٠٦هـ وقيل أيضاً سنة ٩١٠هـ والله أعلم .

أرجو من الله عزوجل أن يتال هذا العمل رضاء الله والمسلمين ونسأل الله العون والمغفرة، يا أرحم الراحمين.

القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

مديحة الشرقاوى

على الخلق بإقامة السلطان ، فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده، وعلى المظلوم إعانته وكف يد الظالم عنه/ فأعظم بشخص يعم بنفعه العباد والبلاد ويصلح [ق ٣ ب] بصلاحه الدنيا والآخرة ، أن يكون شرفه عند الله عظيماً، كما كان قدره في العفو جسيماً ، ومقامه عند الله مقاماً كريماً.

روى أن سفيان الثوري^(١) دخل على المنصور^(٢) فقال : يا أمير المؤمنين إني لأعلم أصلح هذه الأمة . فقال فمن هو ؟ قال : أنت يا أمير المؤمنين؛ وأعلم أنه على قدر عموم النفع ، تشرف الأعمال ، وعلى قدر النعمة تكون المنة . ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعاً، فهم أجل خلق الله قدراً ، لأنهم تعاطوا إصلاح الخلائق وإخراجهم من الظلمات/ إلى النور كذلك سلطان الله في الأرض هو خلافة [ق ٤ أ] النبوة في إصلاح الخلائق ودعائهم إلى عبادة الله تعالى، وإقامة دينهم وتقويم أودهم، وليس فوق السلطان العادل إلا الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين فإله يؤيد مولانا السلطان عز نصره ويخلد ملكه وسلطانه بمحمد وآله .

ولما رأيت عدل مولانا السلطان وشفقته خصوصاً على خير أن سيد ولد عدنان، أحبت أن أجمع ماتيسر لي من الأحاديث النبوية في فضل السلطان العادل والمجاهد وغير ذلك، وأجعل ذلك في خمسة أبواب:

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي أحد الأئمة الأعلام، روى عن أبيه وزيد بن علاقة وحبيب بن أبي ثابت وأيوب وجعفر الصادق وخلق. وعنه ابن المبارك ويحيى القطان وعلي بن الجعد. قال شعبة وغير واحد : سفيان أمير المؤمنين في الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من سفيان. وقال ابن مهدي : ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري، وقال شعبة : إن سفيان ساد الناس بالعلم والورع . ولد سنة ٩٧ هـ ومات سنة ١٦١ هـ

انظر وفيات الأعيان ١/ ٢١٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٩، اللباب ١/ ١٩٨، الفهرست ٢٢٥، العبر ١/ ٢٣٥، طبقات المفسرين للداودي ١/ ١٨٦، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣٠٨، طبقات الفقهاء ٨٤، شذرات الذهب ١/ ٢٥٠، الرسالة المستطرفة ٤١، خلاصة تهذيب الكمال ١٢٣، تاريخ بغداد ١٥١/ ٩، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣ تهذيب التهذيب ٤/ ١١١، خلاصة الأولياء ٦/ ٣٥٦

(٢) انظر : الكامل في التاريخ ٥/ ١٥٢، تاريخ الطبري ٩/ ١٥٤، تاريخ يعقوتى ٣/ ٨٦، العبر ٣/ ١٨٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢٤، مروج الذهب ٢/ ١٦٥ - ١٨٠. تاريخ بغداد ١٠/ ٤٦، فيات الوفيات ٢٣٢/ ١، المعبر ٣٣-٣٤

الباب الأول: فى فضل الإمام العادل

الباب الثانى: فى فضل الجهاد فى سبيل الله وما يتعلق به.

الباب الثالث: فى الشفقة على الخلق ورحمتهم.

الباب الرابع: فى فضل العلم وإكرام العلماء وتوقيرهم، وهذه الخصال الشريفة

قد اجتمعت فى مولانا السلطان فإنه ملك عادل ومن أعظم المجاهدين وشفقته عامة

على المسلمين. واختم هذا الكتاب

الباب الخامس: فى بيان حروف اسم مولانا السلطان. نصره الله وما فى اسمه

ق ١٥] من الأسرار العظيمة. فى ن لكل إنسان من اسمه نصيباً، وسميت هذا / الكتاب

المبارك «مواهب اللطيف فى فضل مولانا المقام الشريف». ونختم الكتاب بخاتمة

نذكر فيها شيئاً من صفات الملك العادل ثم بعد ختمه وإنتهائه إن شاء الله تعالى أقدمه

لمولانا السلطان نصره الله تعالى ليتفجع به من طالعه ويعرف فضل مولانا السلطان

على غيره وإن كنت كمهدى القطر إلى البحر والضياء إلى الفجر لكن لاغنى لحملة

العلم الشريف من التصرف ببيضايعهم أن يضعوها عند أهلها ومحلها خصوصاً

مولانا السلطان، لأنه عم الرعية بفضله وقد عمى بنعمته، وقلدنى الأحكام بين

هـ ب] / رعيته فالفضل منه سابق ولاحق فإله يجزيه أفضل الجزاء إنه على كل شئ قدير

وبالإجابة جدير. فأقول وبالله أستعين، وهو حسبى ونعم المعين.